نظرات في النفس والحياة

— ٧ —

خاتمة نظرات أناتول فرانس

(١) ذهبت إلى أمي وأنا طفلٌ صغير وقلت لها : إن خالتي خادمتنا جرستين قد هجرها . فنظرت إليَّ وقالت : هل هي التي أخبرتك بذلك ؟ : قلت لا ولكني لاحظت وعرفت قالت : إن من التطفل المعيب أن تتحدث عما قد تلاحظ من أمور الناس . وأشد منه عيباً أن تحاول معرفة ما ليس من شأننا من أمورهم ، أو أن تدَّعي تلك المعرفة

(٢) ورأيت قصة تُمثَّل في دار التمثيل وكان أحد الممثلين يمثِّل الشيطان وكان من حوادث القصة أن يقتل بطلُها الشيطانَ ، فلما رأيت الشيطان مقتولاً اعتراني الرجوم والذهول وظللت في مكاني بعد انصراف النُّظَّارة المشاهدين حتى جاءت سوزان تبحث عني فقالت ما لي أراك واجماً حائراً ؟ قلت لقد قُتل الشيطان يا سوزان وإذا قُتل الشيطان زالت الشرور وإذا زالت الشرور زالت الفضائل التي في مكافحة الشرور وبها تُعرَف ، فإذا يكون مصير الناس عامة والفضلاء خاصة يا سوزان ؟ فضحكت سوزان وطوَّقتني بذراعها وقالت لا تذاق فكرك ولا تزعج نفسك فإنَّ الذي رأيته تمثيل لا حقيقة فلا قُتل الشيطان ولا زالت الشرور ولا انمحت الفضائل التي في محاربة الشرور وبها تُعرَف . وهذا يذكرنا الذين يخشون على أمن الإنسان الفقر والجوع والعري والمرض أن تضعف قواتُ المقاومة فيه وعزائمه التي بها ارتقى بسبب الكد كي يأمن الجوع والعري وبسبب إعمال فكره تجنب الفقر والمرض ، فيضعف عقله أيضاً ولمثل هؤلاء يقال لا تجزعوا ولا تزعجوا أنفسكم ولا تشقوا بالكم ، فلا زال الفقر ولا المرض امحى ، ولا قُضي على الجهل .

(٣) كان اعتقادي في الطروب من المدرسة وأنا صغير على الفوضى التي تخالف نظام الحياة مهما كان النظام سائداً . وهذه الفوضى المخالفة للنظام قد تلتف من ظلم الحياة وشدة العدل

— أو قد تزيد قلقها — والإحساس بهذا الاختلال الملازم للنظام ، فما يكون إذ كان المرء راضياً عن الحياة . والاطمئنان إليه كما قدر أنا نزول الصغير لذة وسعادة تحجب عنه الخوف من عواقبه إذ أنه لا يرى أنه قد يُكلَّف شدة الحياة . وهذه الفوضى الملازمة للنظام تكثر في أعقاب دول الأمم التي قامت عصوراً طويلة من الاختلال أو في أوقات الانقلاب .

(٤) ينبغي للانسان اذا اعتنق رأياً أن يقبل نتائجه وعواقبه التصيبية وإلا كانت مقدمات أفكاره تخالف أعقابها واختل منطقه وحاول التوفيق بين المتناقضين وقد يخدع نفسه ويخدع الناس وهو لا يشعر بهذا الخداع وهذه الفكرة تذكرني أني قرأت مقال للاستاذ جوليان هوكسلي في أولها يأسف إذ أن شركات الاحتكار وكبار الماليين تتخذ من نتاج العلوم في الطب والهندسة وغيرها وسيلة للكسب بدلاً من أن ينتفع به الشعب كله الا في حالات الأوبئة التي يخشى منها كبار رجال المال على أنفسهم والا في مجهود الجمعيات الخيرية اضئيل ولكنه لم يفسر كيف يستطاع منع احتكار نتاج العلوم للكسب تفسيراً منصفاً متقناً الا بتوليه تنشأ لجنة علمية مشرفة . وفي المقال الثاني يقول ان الحروب لا تزول الا إذا كانت هناك تربية دولية تحاول أن تقضي على غرائز الكره والانتقام والحسد والاستبداد وغيرها ، ولكنه لم يفسر تفسيراً عملياً مقنعاً كيف يقضي على هذه الغرائز ونظام المنافسة يحييها ويزيدها تمكيناً كلما حاول المعلم محوها بالوعظ ، هل صحيح ما قال نيتشه الفيلسوف الالماني إن الانجليز يحجمون عن تتبع أفكارهم الى نتائجها القصيات أم أن هذه صفة أكثر المفكرين من كل أمة إذا غلب عليهم التفكير وخشوا من غلبته أن تزعزع ثبات حياتهم .

(٥) في بعض الأحايين يتخذ المرء لنفسه عزاء على المصائب بأن يزول منها أو بدلها على سبيل الفكاهة والترويح عن النفس ، كما كان يصنع المسجونون في سجون الثورة الفرنسية الكبرى وهم على وشك أن يعدموا فكانوا في سجنهم يحاكون المحكمة الثورية على طريق الفكاهة والسخر فيحاكمون انساناً ويدّعون إعدامه ثم ينتقلون به الى انسان آخر فيحاكمونه فيها والانسان اذا لم يستطع إلا مواجهة الأمر المخيف أحس ايحاء بالاقبال عليه ، كالفتاة التي تركتها قريناتها في حجرة مظلمة مع جثة على سبيل المزح فلج بها الذعر واحست هذا الايحاء حتى احتضنت الجثة وهي لا تعي فلما عادت قريناتها وجدنها جاثمة لا حر

بهذه الحالة أحياناً . فمن المستطاع أن يفسر صمت المسجونين بأنه كان من عادة هؤلاء الفلاحين أن لا يتحدثوا في كل مرحلة وحقر مادة للهو . وشاعت هذه العادة حتى إن سكنة مدينة الصوانيت أحبت أن تعيش في أكواخ يخيل لرائي أنها مهدمة كأكواخ القرويين . فما كان مظهر تهدمها زينة وتصنعاً بالفن فاتخذت من الفقر مادة للهو . وقصتها تذكر بقصة ضربة ابن عباد ملك الاندلس أو إشبيلية فانها رغبت في مثل هذه الرغبة لأنها اشتغلت حياتها الماضية فبنى لها ابن عباد كوخاً اذا رأيته حسبت أن أرضه من الطين كأرض أكواخ الفقراء وإنما كانت أرضه من العنبر الغالي وأمثال هذا اللهو بكثرة شيء تكثر مؤدياً بأصحاب الدول . على أن لهو المسجونين في سجون الثورة كان دليلا على الشجاعة أو لاستمرار الشجاعة في نفوسهم وقهر الخوف .

(٦) الخط الأنيق من فصيلة الأسد المتوحش وكذلك الانسان المهذب الخيّر من فصيلة الشرير الأثيم . والوديع المسالم المتحضر من فصيلة الهمجي الساطي . ولكننا ننسى ذلك حين تدور بنا الفرائر الكامنة . والرجل الواحد قد يكون في معاشرة إنسان مهذباً كاملاً خيّراً وفي المعاملة بانسان آخر شريراً دنيئاً غبياً . وفي الثورات والحروب ينضو المسالم المتحضر الوديع لباس الحضارة والوداعة والمسالمة وقد يبدو المسنين بالمتوحشين في قسوتهم وهمجيتهم . ولكن القسوة والهمجية قد تكونان ظاهرتان حتى في أثناء السلم في حياة الرجل المتحضر الذي يألفه أصدقاؤه وكأنهم لا يرون شره وخبث طبعه

(٧) يحسن بالكتّاب اذا كتبوا للاطفال كتباً اقتصروا فيها على لغو القول مدّخرين فيها أنهم استنزلوا رؤوسهم الى مستوى عقول الاطفال فتكون نتيجة ذلك أنّ الأطفال ولا سيما الأذكياء منهم لا يكترثون لهم ويزهدون بهم ولا أعني أنه ينبغي التفكير النظري قبل استساغة عقول الاطفال . ولكن الأطفال يعجبون بكتب الخيال مما أنهم يعجبون مثل كتاب روبنسون كروزو وأجزاء من الأوديسية ولستطيع أن نقول أيضاً كتاب ألف ليلة المهذب المنقى وأجزاء من كتاب أسفار جليفار ودون كيشوت وأسرة روبنسون السويسرية ومثالها — وكتاب أليس في أرض العجائب يقبله الكبار كما يقبله الصغار بالرغم من سخف الفكرة فيه لأنه كأنه يحتوي النقل بإجادة مسلّية . وأما محاولة تلقين الأطفال

النظريات العلمية في كتب يحسب الكاتب أنها تفهم عقولهم هي محاولة لا يتبغونها ولا يجدون فيها مسرّة إلا هي للتلاميذ الكبار لا للصغار منهم

(٨) لا شيء أكثر خداعاً للمرء من فطنة الحواس — لأنها إنما فاقصة وإنما ينتفع بها المرء كي يخفي عن نفسه ما يريد إخفاءه لمنفعة عاجلة أو ميل نفسي — ولو انصفت الأخطاء أنها أخطاء ما خدع بها أحد ولكن فطنة الحواس هي التي تكسوها ثوب الصواب والحقيقة فيتحامق الناس في نصرتها والاقتتال عليها .

(٩) بالرغم من أني رجل مسالم أحب السكينة والنظام ، فإني أحب أن يكون في نفس كل إنسان شيء ولو قليل من التمرّد مهما كان سنّ ذلك الانسان . أما الاستسلام التام للحياة فهو ركود وفناء

(١٠) لو استطاع الانسان أن يدرس نفسه دراسة تامّة وأن يعرفها حق المعرفة لسبب له تنغيصاً وشكّاً ويأساً . ومن أجل ذلك أرى أن رسائل مونتاني الذي كان يدرس فيها نفسه لم تكن إلاّ لهواً يتسلى به كي ينسى آلام وجع الكلى الذي انتابه ونغصه — ولكن اناتول فرنس ما قال مونتاني وهو إنه كان يدرس في نفسه نفوس الناس ولا سيما من حوله ومن كان يقابلهم وفي مثل هذه الدراسة تعزية لا تنغيصاً ما دام يرى غيره شريكاً له في صفات نفسه من ربما كان فيها إكباراً لنفسه .

(١١) ولو قسمنا العمل قسمة عادلة بين الناس فانه سيظل عبئاً ثقيلاً على أكثر الرجال والنساء لأن حبهم للحياة وهذا لا يمنع من إنصاف المثقل بأعباء الحياة والتجرد منه .

(١٢) إنه ليؤلم الانسان إذا كادت حياته تنصرم أن يفكر في أن العالم بعد موته يعيش ويتحرك ويحسّ ويفكر كأن حياته لم تكن ، وعندئذٍ لا يكون له رأي أو عمل أو إحساس فيحاول تنظيمها كما يشاء فتحسّ كأنه فارق في مدّ الحوادث وتيار الزمن. وقد عزاه شوبنهور بأنه ما هو إلاّ مظهر من مظاهر إرادة الحياة وإنه لا حياة له من غيرها، أي عزاه في كتبه وهي تعزية لا تُعزّي .

(١٣) كما أن الطبيعة تُحوّل الانسان وتُشكّله وتغيّره وتتحكم فيه . فالانسان كذلك يغير الطبيعة ويشكّلها ويحوّرها وهذا موضوع كبير يرجع إليه في كتب فون راتزل

وسن ستيل وبيرن جونز وغيرهم . وقد أراد أوسكار وايلد أن يضع هذه الحقيقة في أسلوب فكاهي فقال ان الطبيعة تحتذي ألوان الرسامين المصورين الحديثين في ألوان الضباب الذي يحدث في لندن . وإننا ما كنا نرى للضباب مثل هذه الألوان قبل احتذاء الطبيعة ألوان الرسامين الحديثين . ومما هو أبلغ في الفكاهة أن ماكس نورداو الناقد الألماني الشهير أخذ هذا القول مأخذ الجد فقال إن هذا الرأي يدل على سخافة عقل أوسكار وايلد وانحطاطه وقوله هذا في كتابه المسمى (الانحطاط) . ولكن ماكس نورداو معذور إذ أن بعض الكتاب لا يكاد تستطيع أن تميز فكاهته من جده .

(١٤) حقاً ان للعقل ثراً في الجسم كما ان الجسم أثراً في العقل (وهذا شيء يعرفه الأطباء حق المعرفة وهو موضوع كبير أيضاً) وقد كان بيير الصغير يدمن النظر في صور المزارع فتعاوده ذكرى الأيام التي قضاها في المزارع وعاد بعدها نضير الوجه بض الجسم ظاهر الصحة يقبل على طعامه وينضر وجهه ويعاوده مظهر الصحة إذا أدمن النظر في صورها وتأملها تأمل المستملي محاسنها فكأنه عائد من نزهة ريفية .

(١٥) إن شغفي بقراءة الكتب من صغري جعلني أحس من عهد ذلك الصغر بفناء العالم إذ كم من فكرة جاءت ثم زالت وكم من رأي ولد كي يموت وكم من نظرية استحدثت كي تمحي كما تمحي التقاسيم وكم من مذهب ساد ثم باد وبعد ان كان مقبولاً صار مرفوضاً ، فصرت أحس برحلة عقل الانسان في فيافي الزمن

(١٦) كان لي كلب كنت أتأمله وهو نائم فأراه كأنه يحلم وتارة يبش كما يبش المتوجع المهموم وتارة يبسم أو كأنه يضحك وتارة يبكي فكأن له نفساً يقظى ووهياً باطناً كما للانسان — وهذا يذكرني تورجنيف القصصي الروسي في قصصه القصيرة التي تشبه الشعر المنثور ، إذ كان يمدن النظر في عيني كلبه فيرى فيها عواطف الانسانية جميعها فناداه بالاخوة وهي على الأقل أخوة في الحياة .

(١٧) قد يأتون فورنيه الرحالة متفكهاً احذر أن تكسر البيضة من الجانب المحدب الأصغر ، إكسرها دائماً من الجانب المنبعج الكبير لأن قومنا يكسرونها من ذلك الجانب . وقد طفت العالم فوجدت ان الناس المعروفين بالخير هم الذين يصنعون كما

يصنع غيرهم حتى في الأمور الصغيرة التافهة ، وإذا خشيت ان تفسي نصيحتي فعليك بالعزلة . اعتزل الناس كي لا يروا سبوك وكسرك البيضة من الجانب الصغير . وقد احتذى أناتول في هذه الفكاهة سخر يونان سويفت الكاتب الانجليزي في كتاب أسفار جالفار فإنه أيضاً تخيّل في دولة الاقزام ليليبوت حرب جانب البيضة المنحدب وأقام بينهما حروباً ومؤامرات وعداوات . والموعظة في هذه الفكاهة هي ان الناس كثيراً ما يتعادون ويتقاتلون لأسباب تافهة .

(١٨) تذكر انك لا تستطيع ان تهب أحداً السعادة ، بأن تقهره على ان يرى السعادة فيما تراه أنت سعادة . فلكل انسان رأي في السعادة وكان يستطيع أناتول أن يقول أيضاً إن هذا الرأي كثيراً ما يتغير فتارة يرى الانسان السعادة في شيء وتارة في ضده . وفي بعض الأحايين يرى السعادة فيما فيه شقاؤه وهو لا يدري .

(١٩) لا بدَّ لكل جيل أن يختبر تجارب الحياة بنفسه لأن الحياة كأنها تنشأ من جديد بنشأة كل جيل إذ أن التجارب لا تسلَّم وإنما يكسبها الانسان بمزاولة الحياة وقد لا ينتفع بها بالرغم من ذلك ، ولعلَّ ضرورة اختبار تجارب الحياة في نشأة كل جيل من أسباب قلة تغيرها أو تغيرها ببطء

(٢٠) بعض الناس إذا أصابه أمرٌ حزن وتنسَّى عن نفسه بمظاهر الحزن احتقر نفسه من الكبر ولو تذكر أنه ليس أعظم من الأمر الذي أحزنه لما زاد على نفسه المصائب بهذا الكبر ، لأنَّ احتقاره لنفسه بسبب حزنه أو الغائظ لحزنه يزيد المصيبة أو الأمر الذي حزن من أجله .

(٢١) بعض حقائق الحياة قد تكون غريبة على غربها وألفتنا فلا حتى إنها لغرابتها قد تصدها فكاهة لا حقيقة — وهذا يذكرني قصة من قصص سمرست موام اشتهرت فيها امرأة بفكاهة الحكايات وما كان ذلك إلاَّ لأنها كانت ساذجة فكانت لا تستطيع لسذاجتها أن تتجنب ذكر الحقائق المألوفة التي يحاول الناس نسيانها ويتحرَّجون من ذكرها

(٢٢) المال له دولة عالمية حقيقية كبيرة قوية كدولة البابوية والكنيسة الكاثوليكية في القرون الوسطى وهي دولة مستقلة ذات سيطرة ولكن كثيراً ما نسى أن نصدها بين الدول العظمى .

(٢٣) كثيراً ما تسرف الحكومات إسرافاً كبيراً في مظاهر الأبهة والعظمة ومناصب السياسة الثانية أو غيرها ، وتحاول أن تقتصد فلا تستطيع فتوهم نفسها أن كل ذلك أمرٌ ضروري شبيها وصيانة مصالحها ثم هي تشكو من قلة المال الذي تحتاج إليه لإصلاح حال الناس فترحتهم بالضرائب

(٢٤) ذوو العقائد المختلفة في البقعة الواحدة قد يكونون أقرب أخلاقاً من ذوي العقائد المتفقة في البقاع الشاسعة فكان الامبراطور جوليان الوثني يصوم ويزهد في لذات الجسم ويعتقد التكفير عن الخطايا ويرى أن الألم مطهر للنفوس كما كان يصنع المسيحيون في عهده ولو قرنت بين المسيحية في أوربا وبينها عند الزنوج لوجدت اختلافاً كبيراً واختلافاً في أخلاق الفريقين.

(٢٥) بعض الناس يكره العلم من هذه عشته له كما يكره العاشق عيوبته اذا وجد أنها بالرغم من جمالها وحسن أخلاقها لم تستطع أن تجتلب له كل أحلامه وأمانيه وكذلك بعض الناس يكرهون العلم لأنه لا يستطيع أن يفسر كل شيء وما ادعى أنه يستطيع ذلك. وبعضهم يكره العلم لأن اختراعاته الحربية المروعة قد تستخدم في الشر، والعيب عيب الإنسان لا عيب العلم.

(٢٦) الأفكار كثيراً ما تكون وليدة النزعات النفسية المتناقضة فتتناقض أفكار الانسان كثيراً وهو يحسب انها غير متناقضة وقد ينتبه إذا نبهته الى ذلك ويلج في انكاره

(٢٧) حسن الذوق ضروري لأنه يدخر حتى من ليس عنده حس ذوق فكثيراً ما ترى إنساناً فسيح الذوق يقول: «فلان» ليس عنده حس ذوق». وهو من ضرورات الحاكم والسياسي لأنه يشمل صفات أخرى كثيرة مثل عدل المرء في قوله وعمله وخلقه.

(٢٨) ما استطاع الانسان أن يؤسس الحكومات إلا لأنه يأمل أن يكون حاله في غده أحسن من حاله في يومه. وهذا الأمل يتجلد بالرغم من خيبته.

(٢٩) ليس انتشار ثورة أو نجاحها دليلاً على مقدار الظلم الذي ابتغتها فانه إذا كانت جماعة من الناس جائعة متبلدة العقول والاحساس من التعاسة وربقة الاجسام لا سلاح لها إلا الغيظ ولقد كانت أضعف وأعجز من أن تزيل الظلم بثورة ناجحة. وهذا أمر معروف في التاريخ فان بعض الحكام كان يتعمد ايجاد مثل هذه الحالة أو المحافظة عليها كي يظل هو وأنصاره مستأثرين بخيرات الحياة والحكم. ومن المعروف أيضاً ان الثورة الفرنسية ما استفحل أمرها لأن الفرنسيين كانوا أتعس حالاً من غيرهم لأن تعاستهم كانت قد تقادمت نسبياً عن تعاسة غيرهم من شعوب القارة الأوربية ولتعاستهم في أزمان غابرة.

(٣٠) ربما كانت القسوة جُمّاع الرذائل. وربما كان الصفح ضعفاً لا يغتفر إذ هو على الأقل ضعف الانسان عن ان يملك نفسه وان يحكمها.

(٣١) يسع أن نختصر وصف أسباب الخصومات في كلمة واحدة فنقول إننا نلوم من لا يفكر كمن نفكر ومن لا يشعر كمن نشعر.

ع . ش